مُعْجِزَاتُ الخِطَابِ مع الكَائِنَات

لقد كانت هذه المعجزة أكثر تجلياً مع سيدنا سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام، فكان يخاطب الطيور والحيوانات وتخاطبه. ومن ذلك ما ذكره القرآن الكريم من أمر الهدهد:

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[النمل:٢٠-٢٤].

تلاحظون فى الآيات أن سيدنا سليمان عليه السلام يخاطب الهدهد، فيفهمه، ويخاطبه الهدهد، فيفهمه سيدنا سليمان.. وقد وثّق جل شأنه من هذه القدرة، فقال على لسان سليمان عليه السلام:

﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾[النمل:١٦].

وحتى النمل الذى تكاد العين أن لا تراه، كان سيدنا سليمان عليه السلام يسمع كلامه، ويفهمه:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[النمل:١٨، ١٩].

فليس لبشر أن يعلم لغة الخطاب لدى الكائنات الحيَّة، ومن ثمَّ يتبادل معها الحديث الواعى، إلا إذا أراد جل شأنه ذلك. كما هو الحال مع سليمان عليه السلام.

فماذا كان لدى محمد ﷺ ؟

١ - الجمل يشكو:

* عن عبدالله بن جعفر، قال: ركب رسول الله ﷺ بغلته، وأردفنى[١] خلفه، وكان رسول الله ﷺ إذ تبرّز كان أحبّ ما تبرّز فيه هدف[٢] يستتر به، أو حائش نخل[٣]، فدخل حائطاً لرجل من الأنصار، فإذا فيه ناضح[٤] له، فلما رآه النبى ﷺ حنّ وذرفت عيناه، فنزل رسول الله ﷺ فمسح ذفراه[٥]، وسراته[٦]، فسكن، فقال: «من رب هذا الجمل»؟ فجاء شاب من الأنصار، فقال: أنا. فقال: «ألا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملكك الله إياها، فإنه شكاك إلىَّ، وزعم أنك تجيعه وتدئبه[٧]». [رواه أحمد وأبو داود].

* عن يعلى بن مرَّة الثقفى، قال: ثلاثة أشياء رأيتهن من رسول الله ﷺ: بينما نحن نسير معه، إذ مررنا ببعير يُسْنى عليه[٨]، فلما رآه جرجر ووضع جرانه[٩]، فوقف عليه النبى ﷺ، فقال: «أين صاحب هذا البعير»، فجاء، فقال: «بِعْنِيه». فقال: لا، بل أهبه لك. فقال: لا «بِعْنِيه»، قال: لا، بل أهبه لك، وإنه لأهل بيت ما لهم معيشة غيره. فقال: «أما إذ ذكرت هذا من أمره، فإنه شكا كثرة العمل، وقلّة العلف، فأحسنوا إليه». [رواه أحمد والدارمى].

فها هما البعيران يشكوان إلى رسول الله ﷺ، وها هو رسول الله يخبر من كان حوله بمضمون هذه الشكوى.

---

(١) أردفنى: الرديف، هو الراكب خلف الراكب.
(٢) الهدف: كل ما ارتفع من بناء أو غيره.
(٣) حائش نخل: بستان نخل.
(٤) ناضح: ما يُستقى عليه من الإبل.
(٥) ذفراه: أصل أذنه وطرفها.
(٦) السراة: الظهر.
(٧) تدئبه: تُتعبه بالكد والعمل.
(٨) يسنى عليه: يستخدمه فى رفع الماء من البئر.
(٩) الجران: مقدم عنق البعير والفرس من مذبحه إلى منحره.

obeikandl.com

فمن أين لرسول الله ﷺ أن يفهم شكوى البعيرين، إن لم يكن يَفْهَمُ لُغَةَ الحيوان كما كان سليمان عليه السلام يفهم لغة الطير والحيوان؟

ثمّ ما الذى جعل البعيرين يأتيان إلى رسول اللّه ﷺ من بين الرجال الآخرين الذين كانوا معه؟

إن فى ذلك لمؤشّر على أن البعيرين كانا يعلمان أن هذا الرجل هو محمدﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين، وكانا يعلمان أنه سيفهم منطقهما، وأنه الوحيد القادر على رفع الظلم الواقع عليهما.

ولذلك أقبل كلٌّ منهما إلى رسول الله، وأخبره بما يعانى.

وإن كان لنا أن ندرج هذين الأثرين تحت بابٍ آخر، لأدرجناه تحت عنوان:

الكائنات تشهد لمحمّد ﷺ بالرسالة.

ولجلاء هذه المعجزة نضيف الأثرين التاليين:

* عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما، قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من سفر حتى دفعنا [1] إلى حائط من حيطان بنى النجار، إذا فيه جمل، لا يدخل الحائط أحد إلا شدّ[2] عليه. قال: فذكروا ذلك للنبى ﷺ، فجاء حتى أتى الحائط، فدعا البعير، فجاء واضعاً مشفره[3] إلى الأرض حتى برك بين يديه، قال: فقال النبى ﷺ «هاتوا خطاماً»[4]، فخطمه، ودفعه إلى صاحبه، قال: ثم التفت إلى الناس: « إنه ليس شىء بين السماء والأرض إلا يعلم إنى رسول الله إلا عاصى الجن والإنس» [رواه أحمد والدارمى].

---

(١) دفعنا: أى أقبلنا.

(٢) شدّ عليه: أى اندفع نحوه يريد أذيّته.

(٣) المشفر: هو من البعير كالشفة من الإنسان.

(٤) الخطام: الحبل الذى يُقاد به البعير.

* عن علىّ بن أبى طالب، قال: كنت مع النبى ﷺ بمكة، فخرجنا فى بعض نواحيها ، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله . [رواه الترمذى والدارمى].

لقد أسبغ رسول الله ﷺ صفتى العلم والكلام على الجمادات والكائنات. فكيف ذلك؟

أثبت لنا جل شأنه فى كتابه الكريم شواهد عديدة على إدراك الجمادات، وقدرتها على الكلام، ومن ذلك:

١ - ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[الإسراء:٤٤].

أى : كل شى فى الوجود؛ نباتات وحيوانات وجمادات ومجرّات وذرات . . وغير ذلك ، كلها تسبّح الله تعالى. وعدم إدراكنا لذلك التسبيح لا يعنى أنها لاتسبّح الله.

ولا يكون التسبيح من المخلوق إلا فى حال إدراكه خالقه، تماماً كالذى يحدث مع الإنسان عندما يدرك عجيبة من عجائب المخلوقات يجد لسانه يدور فى حلقه قائلاً: سبحان الله.

٢ - ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾[الحشر:٢١].

فلو كان الجبل هو المكلّف بحمل القرآن لا الإنسان، لتصدّع وتشقق لعظم ما داخله من خشوع وخشية لله، وليس للخشوع والخشية أن يسيطرا على الجبل إلا بتوفر القدرة العاقلة لديه، والتى تجعله يعلم من خلال دلالات القرآن ما لله من عظمة وجلال.

٣ - ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ ﴾[الأحزاب:٧٢].

فقد أبت الجبال والسماوات والأرض أن يحملن تلك الأمانة ؛ لما أدركته من عظمها وخطرها، الذى قد لا تتمكن معه من القيام بمستحقاتها ، وحملها الإنسان وكان حمله لها مؤشراً على أن السماوات والأرض والجبال أكثر عقلانية منه؛ لأنّهنّ أَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا .

من ذلك يتبيّن لنا أن الجمادات والكائنات الحية تدرك إدراكاً عالياً، بل وتتكلم. وليس لبشر أن يخاطبها أو أن يدرك خطابها إلا بأمرٍ من الله تعالى، والذى لا يتوفرّ إلا فى ظلّ ما يريده جل شأنه من معجزات وكرامات للنبى المعنىّ بذلك الأمر. فسجّل لنا جل شأنه فى كتابه الكريم مخاطبة سليمان عليه السلام الطيور والحيوانات.

وها هو مولانا رسول الله ﷺ يستمع إلى خطاب تلك الكائنات، التى كانت تعلم أنه رسول الله، فكانت تسلّم عليه بالرسالة.

فمن أين علمتْ بذلك؟

إن البشر لا يملكون أن يعلموا بحقائق الكون والحياة إلا من خلال نبىّ يرسله جل شأنه إليهم، فهل كان لهذه المخلوقات أنبياء مرسلون يبلغونها بأنّ محمداً بن عبدالله هو خاتم الأنبياء والمرسلين؟

الإجابة «نعم» منْ شأنها أنْ تثير الاستغراب ، إذْ لا أثر يدعمها من الكتاب أو من السنّة. فلا يبقى أمامنا سوى القول بأن هذه الموجودات علمتْ بذات رسول الله ﷺ من خلال علم ألقاه إليها رب العالمين فى ذَات إدراكها، لذلك فهى تدرك من حقائق الوجود ما لايملكه الإنسان. وفى ذلك حكمة:

فلو أن العلم لدى الإنسان كان كعلم تلك الموجودات، لما كانت هناك حكمة من حياة الإنسان على هذه الأرض، التى جعلها جل شأنه:

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[الملك:٢].

ولا يتفاوت العمل إلا بتفاوت قدر الإيمان بالغيب. فلو توفر العلم بالغيب للإنسان كما توفر لتلك الموجودات لما انصرف عن عبادة الله تحت أىِّ ظرف من الظروف، والشاهد على ذلك أنبياء الله تعالى، الذين لم يحدثْ مع أىٍّ منهم أنْ انصرف عن طاعة الله وعبادته، لأنَّه يملك من العلم الغيبى ما يقف سداً منيعاً أمام تيارات المعصية.

إذن، فمن كرامة رسول الله ﷺ أنّ المخلوقات شهدت له بالرسالة، الجبال والأشجار والحجارة والحيوانات، وسوى ذلك، وهو الأمر الذى يقرّه قوله ﷺ: «ليس شىء بين الأرض والسماء إلا يعلم أنى رسول الله إلا عاصى الجن والإنس» [رواه أحمد].

وهذه الشهادة، وذلك العلم، لم يكونا محصورين فى مظهر الكلام، بل كانا يظهران فى صورٍ أخرى.

الوحش يخشع.

قالت عائشة : كان لآل رسول الله ﷺ وحش ، فإذا خرج رسول الله ﷺ لعب واشتدّ وأقبل وأدبر، فإذا أحسّ رسول الله ﷺ قد دخل ربض ، فلم يترمرمْ[1] ما دام رسول الله ﷺ فى البيت؛ كراهية أن يؤذيه. [رواه أحمد].

فما الذى يجعل الوحش يفعل ذلك ، إن لم يكن يدرك أن ذلك الرجل هو محمد ﷺ؟

إن الوحش بهذا المسك المذكور يشير إلى أنه يعلم أنَّ ذلك الرجل هو رسول الله، وأن الخشوع فى حضرته واجب مقدس. وهى الحقيقة التى لم يدركها المسلمون إلا بعد أنْ جاء الأمر إليهم بذلك.

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾[**الحجرات**:٣].

---

(١) لم يترمرم : لم يتحرك.

وغض الصوت يعنى كونه منخفضاً ، وانخفاضه هو خشوعه، ومن ذلك قوله جل شأنه:

﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا ﴾[طه:١٠٨].

لجلال الرحمن، سبحانه وتعالى، يوم القيامة.

أما فى الدنيا فقد علمنا جل شأنه أن الخشوع فى حضرة رسول الله واجب مقدس، لا تجوز مخالفته وها هو الوحش يلتزم بهذه الحالة؛ احتراماً لوجوده ﷺ وأدباً فى حضرته.

فمن أين للوحش أن يدرك ذلك إن لم يكن به إدراك يعى به ذات رسول الله، وعلمٌ بأن هذا الرجل رسول الله الخاتم؟!

٢ - حنين جذع النخلة:

عن جابر بن عبدالله الأنصارى رضى الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ يقوم إلى جذع قبل أن يجعل المنبر، فلما جعل المنبر، حنّ ذلك الجذع حتى سمعنا حنينه ، فوضع رسول الله ﷺ يده عليه فسكن. [رواه الدارمى].

الحنين : هو صوت الناقة إذا حنّت إلى فصيلها المفصول عنها ، فأرادته.

ولكنه هنا لم يأتِ من الناقة، إنما جاء من جذْع نخلة، وهو الجزء الأسفل من النخلة عندما تُقْلع من مكانها.

أخذ المسلمون ذلك الجذع وجعلوه لرسول الله ﷺ ليقف عليه كلما أراد أن يخطب فيهم، فكان ينعم بقرب رسول الله ﷺ، وبعد أن تركه رسول الله إلى المنبر الذى أعدّوه له حزن ذلك الجذع على فراق رسول الله.

وفى الأوضاع الطبيعية لا يمكن لأحد أن يدّعى أنه يسمع أصوات النباتات، وأما استماع المسلمين لحنين الجذع، فلم يتحقق إلا بعد إزالة الحجب، أو ما يسمّى بالقوانين الطبيعية ، التى تمنع الإنسان من إدراك أصوات النباتات، أو تمنع النبات من إيصال صوته إلى الإنسان. . ذلك أمر ليس له أن يتحقق إلا فى ظل

المعجزة التى يُجْريها جل شأنه أمام الناس مرافقة لدعوة نبيِّه؛ لتكون مؤشراً على صدقه، وقائداً إلى المزيد من الإيمان.

فتخّيلوا أن جذع النخلة اليابس كان يعلم بأن رسول الله هو من كان يقف عليه، فكان ذلك مدعاة لسروره واطمئنانه، تماماً كما كان يحدث مع المسلمين الأولين، عندما كانوا يفرحون بأن يأكل رسول الله ﷺ من طعامهم، أو يصلى فى منازلهم، أو أن يضع يده الشريفة على رأس أحدهم، أو أى شى من هذا القبيل.

٣ - الشجرة تستجيب:

أ - عن ابن عمر قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر، فأقبل أعرابى، فلما دنا منه، قال له رسول الله ﷺ: «أين تريد»؟ قال: إلى أهلى. قال: «هل لك فى خير؟» قال: وما هو؟ قال: «أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله» قال ومن يشهد على ما تقول؟ قال: « هذه السلمة»[١]. فدعاها رسول الله ﷺ وهى بشاطئ الوادى، فأقبلت تَخُدّ[٢] الأرض خدّا، حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً، فشهدت ثلاثاً أنه كما قال، ثم رجعت إلى منبتها، ورجع الأعرابى وقال: إنْ اتبعونى أتيتك بهم، وإلا رجعْتُ، فكنْتُ معك. [رواه الدارمى].

ب- عن جابر قال: خرجت مع النبى ﷺ فى سفر، وكان لا يأتى البراز حتى يتغيَّب فلا يُرى، فنزلنا بفلاة[٣] من الأرض، ليس فيها شجر ولا علم[٤] فقال: «يا جابر، اجعل فى أداوتك ماء»، ثم انطلق بنا، قال: فانطلقنا حتى لا نُرى، فإذا هو بشجرتين بينهما أربعة أذرع، فقال: « يا جابر، انطلق إلى هذه

---

(١) السلمة : نوع من أشجار البادية.
(٢) تخدّ : تشقّ.
(٣) فلاة : صحراء.
(٤) علم : يقصد به أى شىء يكون علامة ظاهرة.

الشجرة، فقل: يقل لك الحقى بصاحبتك حتى أجلس خلفكما » فرجعتْ إليها، فجلس رسول الله ﷺ خلفهما، ثم رجعت مكانها. [رواه الدارمى وأحمد].

جـ- عن أنس قال: جاء جبريل عليه السلام ذات يومٍ إلى رسول الله ﷺ، وهو جالس حزين، قد خُضّب بالدماء، قد ضربه بعض أهل مكة، فقال: ما لك؟ قال: «فعل بى هؤلاء وفعلوا» قال: أتحب أن أريك آية؟ . قال: «نعم أرنى» فنظر إلى شجرة من وراء الوادى، قال: ادْعُ تلك الشجرة فدعاها فجاءت تمشى، حتى قامت بين يديه. قال: قل لها، فلترجع . فقال لها فرجعتْ حتى عادت إلى مكانها، فقال رسول الله ﷺ: «حسبى»(١).

[رواه ابن ماجة وأحمد والدارمى]

كنت فى فصل (الكائنات تشهد. .) قد ذكرت أن تلك الكائنات كانت تخاطب رسول الله ﷺ، وكان رسول الله يستمع إلى خطابها، وفى هذا الجزء سنرى أن رسول الله هو الذى يخاطبها، فتسمع خطابه، وتدركه، ومن ثَمَّ تستجيب له.

فما هى لغة الخطاب بين رسول الله ﷺ وبين تلك الموجودات؟

من المسلّم به أن لكل جنس من الأجناس لغته الخاصة التى يعبِّر من خلالها عن علمه وإحساسه، والدليل قوله تعالى:

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[الإسراء:٤٤].

أى أن الكائنات بأصنافها المختلفة تسبّح الله تعالى بلغات، لا يملك الإنسان أنْ يُدركها إلا إذا علّمه الله إياها. ثمّ إن لغة الخطاب بين رسول الله ﷺ وتلك الكائنات استدعت تجاوزاً للقانون الطبيعى؛ إما لدى محمد ﷺ أو لدى الكائنات.

أولاً : لدى محمد ﷺ.

---

(١) حسبى : يكفينى.

قال تعالى على لسان سليمان عليه السلام:

﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾[النمل:١٦].

(مَنطِقَ)

على وزن مَفْعِل ، وهو اسم مكان النطق، وليس العلم بمكان النطق سبباً لفهم اللغة، إنما العلم باللغة ذاتها هو السبيل إلى الفهم، ولذلك اكتست هذه الكلمة شكلاً بلاغياً يسمّونه (المجاز المرسل) وعلاقته (المحليّة) ؛ لأنه ذكر المحل وهو مكان النطق، وأراد الحالّ فيه، وهو اللغة التى تخرج من ذلك المكان.

أما الفعل (عُلِّم) فقد بُنِى للمجهول، فحُذف فاعله، وناب عنه المفعول به الأول، فمن ذا الذى بمقدوره أن يعلّم الإنسان لغات الطير والحيوانات؟

إنه الله جل وعلا الذى قام بفعل التعليم.

فلم تكن لغة الطير إذن لغة متيّسرة لبنى البشر، يفهمها القاصى والدانى بل كانت لغة خاصَّة ، لا سبيل للإنسان لكى يّطلع عليها إلا بتيسير من رب العالمين. لذلك نجده سبحانه قد علم سليمان عليه السلام لغة هذه المخلوقات. فكان يخاطبها وتخاطبه.

وكذلك هو الشأن مع محمد ﷺ ، علّمه جل شأنه لغات الكائنات، فكان يترجم لصحابته ما تلقيه إليه هذه الكائنات من كلمات ، كالذى ذكر من شأن البعيرين اللذين جاءا إلى رسول الله شاكيين: فأحدهما أخبر عنه رسول الله قائلاً لصاحبه « . . فإنه شكاك إلىَّ ، وزعم أنك تجيعه وتدئبه . . » وأما الآخر « . . فإنه شكا كثرة العمل وقلّة العلف . . ».

وهاتان الشكاتان لم يدرك منهما الصحابة شيئاً، مع أنهم كانوا فى نفس الموقف الذى كان فيه رسول الله، الوحيد الذى استمع إلى الشكاتين وفهمها هو محمدﷺ ؛ لأن الله تعالى علمه منطق الكائنات كالحجر الذى كان يسلّم عليه قبل البعثة ، والجبال والأشجار التى صادفته فى بعض أنحاء مكة قائله له: السلام عليك يا رسول الله.

ثانياً : لدى الكائنات :

- قلْتُ قبل قليل: أن الكائنات التى كانت تخاطب سليمان عليه السلام سابقاً، ورسول الله ﷺ لاحقاً، كانت تتكلم بلغتها هى ، والتى لا يستطيع أحد أن يدركها أو يفقهها إلا إذا أراد جل شأنه ذلك.

ومع ذلك فإن الأمر قد يخرج عن هذه القاعدة فى معرض المعجزة الجليَّة التى يدرك الناس من خلالها هيئة المعجزة. إذ ليس للناس أن يدركوا لغة هذه الكائنات، فاستدعى الأمر أن يأخذ الصوت صورة يدركها الناس ، وأن تأخذ اللغة أيضاً هيئة يفهمها المسلمون.

* ومن ذلك ما ورد فى الحديث الذى رواه البخارى والترمذى والنسائى والدارمى، والذى ورد فيه قول الصحابى: (ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤْكل).

فلو لم يكن التسبيح باللغة العربَّية لما قال ذلك الصحابى ما ذكرناه لكم قبل قليل.

* أو كما ورد فى الحديث الذى رواه ابن عمر عن رسول الله ﷺ ، إذ مرّ به أعرابى، وهو فى سفر، فدعاه إلى الإسلام، فسأله الأعرابى: من يشهد على ما تقول؟ فقال رسول الله ﷺ :« هذه السلمة» فدعاها رسول الله ﷺ ، وهى بشاطىء الوادى ، فأقبلت تخدّ الأرض خداً ، حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً، فشهدت ثلاثاً أنه كما قال، ثم رجعت إلى منبتها، فآمن الأعرابى.

فلو كانت شهادة هذه السلمة بغير لغة القوم، لما كانت دليلاً على صدق رسول الله ﷺ أمام ذلك الأعرابى، لذلك أراد جل شأنه أن يحقق لذلك الأعرابى معجزة، لا يجد أمامها بداً من الإيمان بالله ورسوله. فجعل السلمة تتكلم بلغته هو التى يدرك هيئتها، ويفهم معانيها.

* أو كما ورد فى الحديث الذى رواه مولانا الإمام على بن أبى طالب كرّم الله وجهه:

كنت مع النبى ﷺ بمكة، فخرجنا فى بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله. [رواه الترمذى والدارمى].

وهو حديث من شأنه أن يقودنا إلى تأويلين:

١ - أن لغة الجبال والأشجار كانت بلغتها الخاصة، التى لا يفهمها إلا الأنبياء، وقد فهمها الإمام، لأن مقامه مقام نبى من الأنبياء، ولكن بدون أن يُوحى إليه، حيث قال رسول الله ﷺ: «أما يرضيك أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدى»[صحيح مسلم].

٢ - أن لغتها كانت باللسان العربى المبين، ولذلك سمعها الإمام وفهمها، والهدف من ذلك هو بثّ المزيد من الآيات والمعجزات أمام بصر وسمع الإمام، ليكون ذلك سبباً للمزيد من الإيمان واليقين فى قلبه. كرَّم الله وجهه.

لقد علّم جل شأنه سليمان عليه السلام منطق الطير، فكان فى ذلك كرامة له، بلغت من الجلال والتقدير مبلغاً، جعلها لائقة أن تذكر فى كتاب الله تعالى.

وكذلك كان الشأن مع محمد ﷺ الذى علّمه ربه منطق الحيوان والشجر والحجر والجبل.. ولكنه سبحانه وتعالى، لم يذكر شيئاً من ذلك فى كتابه المجيد كفعله مع سليمان عليه السلام. وليس السبب فى ذلك هو كون المعجزة مع سليمان عليه السلام أكثر إجلالاً وقدراً، بل العكس هو الصحيح.

وعدم ذكر معجزات رسول الله ﷺ فى القرآن الكريم سَبَبُهُ كون القرآن آخر الرسالات السماوية، وقد جرى السياق فى كتاب الله تعالى على ذكر معجزات الأنبياء من خلال ما يقصه علينا جل شأنه من أخبار الأمم السابقة. ولو كانت هناك رسالة أخرى بعد القرآن الكريم، لقصّ فيها جل شأنه كل ما كان مع محمدﷺ من معجزات.

ثم إن ما فى القرآن من معجزات كونية كاف لأن يكون دليلاً على صحة هذه الرسالة، وصحّة ما فيها، من خلال الربط بين صاحب الرسالة الذى كان أمياً،

لا يقرأ ولا يكتب، وبين ما ورد فى القرآن من دقائق علمية وكونية واجتماعية واقتصاديَّة وسياسيّة قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[فصلت :٥٣] .

استجابة الكائنات لأمر رسول الله ﷺ :

كنا قد تعرّضنا إلى جوانب من هذه المعجزة فيما سلف من قول، ولا بأس فى عرض المزيد:

* عن ابن عباس قال: جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال: بِمَ أعرف أنك نبى؟ قال: « إن دعوت هذا العذق[١] من هذه النخلة، أتشهد أنى رسول الله ». فدعاه رسول الله ﷺ ، فجعل يتنزّل من النخلة، حتى سقط إلى النبىﷺ ، ثم قال: «ارجع» ، فعاد فأسلم الأعرابى. [رواه الترمذى والإمام أحمد].

* عن ابن مسعود ، قال: كنت أرعى غنماً لعقبة بن أبى مُعَيط ، فمرّ بى رسول الله ﷺ وأبو بكر، فقال: «يا غلام، هل من لبن؟» قلت: نعم، ولكنى مؤتمن . قال: «فهل من شاة لم ينْزُ[٢] عليها الفحل؟» فأتيته بشاة ، فمسح ضرعها، فنزل اللبن ، فحلبه فى إناء، فشرب، وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: «اقلص»[٣] فقلص[رواه أحمد].

الحديث الأول :

استجاب عذق النخلة لأمر رسول الله ﷺ ، فترك مكانه من النخلة، ونزل إلى الأرض، وهى حركة قد لا تكون غريبة ومعجزة فى ظل القانون الطبيعى الذى يقول إن العذق إذا ضعف تعلّقه بالنخلة سقط على الأرض بفعل قانون الجاذبية.

---

(١) العذق : القنو، وهو من النخل، كالعنقود من العنب.
(٢) لم ينْزُ عليها الفحل: لم يثب عليها الذكر ويطأها.
(٣) اقلص: انكمش.

أما العجيب الغريب بالفعل، هو أن يخالف ذلك العذق قانون الجاذبية، فيرتفع عن الأرض بدون يد ترفعه، إلى أن يلتصق بالمكان الذى تركه. وهذه الغرابة والمخالَفة لقانون الطبيعة هى التى دعت الأعرابى إلى الإيمان برسول الله.

فقد استمع العذق إلى نداء رسول الله ﷺ، فاستجاب لندائه، فترك مكانه من النخلة، لا من علّة ولا من ضعف، بل بكامل إرادته التى سخرها له رب العالمين. وقد نجد فى هذه المعجزة تشابهاً مع معجزة عيسى عليه السلام، عندما كان ينفخ فى هيئة الطين، فتكون طيراً بأذن الله، قال تعالى:

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي..﴾[المائدة:١١٠].

وكنت قد ذكرت فى كتاب (من قصص القرآن) عندما تعرَّضت لقصّة خلق عيسى عليه السلام، أن الأمر فى الآية يحتاج إلى إذنين:

١ - إذن لعيسى عليه السلام بأن ينفخ فى الطين؛ ليكون طيراً حيّاً.

٢ - وإذن لهيئة الطين بالاستجابة لنفخة عيسى عليه السلام وإرادته.

ونفس الحال كان مع محمد ﷺ، ولكنه لم يكن من باب إحياء الجمادات، إنما من باب آخر، هو خروج الكائن عن القوانين التى خلق بها إلى قوانين أخرى ليست معهودة فيه، تماماً كخروج الطين عن هيئته التى خُلق بها إلى هيئة أخرى.

فلم يكن رسول الله ﷺ ليأتى بالمعجزة من تلقاء نفسه، بعيداً عن إرادته سبحانه، فهذا ليس من أخلاق الأنبياء، وكما أنهم لا ينطقون عن الهوى، فكذلك معجزاتهم لم تكن لعباً ولهواً. بل بإذن من الله تعالى.

وكذلك العذق، لم يكن ليستجيب لدعوة رسول الله ﷺ لولا أن الله تعالى أذن له بذلك.

الحديث الثانى:

وهو الذى يتحدث عن ذلك الضرع الضامر، والذى لا وجود فيه حتى لقطرة

لبن واحدة، فأصبح ببركة يد رسول الله حافلاً باللبن. ودعوة رسول الله لهذا اللبن، أو لذلك الضرع لم تكن كلاماً نطق به، إنما اكتفى ﷺ بإمرار يده الشريفة عليه، وفى نيته أن يحفل الضرع باللبن، فاستجاب لرغبة رسول الله، وامتلأ باللبن.

وحقيقة الأمر هى أن الاستجابة لم تكن من الضرع فحسب، بل كانت الشاة بأكملها؛ لأن اللبن لا يأتى من الضرع فحسب، بل من جميع خلايا جسم الشاة، قال تعالى:

﴿ نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا ﴾[النحل:٦٦].

فهذا اللبن الذى نشربه إنما كان من بين مكونات الدم، وقبل ذلك كان طعاماً فى بطن الشاة، فتستخلص الأمعاء من ذلك الطعام المهضوم العناصر المطلوبة، وما تبقى يخرج زبلاً. وذلك هو الفرث.

ومن الثابت أن الشاة تحتاج إلى قانونين حتى تدرّ لبنا.

١ - أن ينزو عليها الفحل.

٢ - أن تجد الطعام الذى يكفيها.

أما هذه الشاة ، فلم ينزُ عليها الفحل، ولذلك فإن القانون الطبيعى يحتّم عدم وجود اللبن، والقانون هنا ليس قانون الضرع فقط؛ لأن الضرع ما هو إلا المرحلة النهائية لعملية تجهيز اللبن، فلابد من ماء الفحل أن يكون حاضراً فى رحم الشاة، وحضوره يعطى إشارات كهروكيميائية لجميع أجزاء الجسم، من أجل استنفارها لإعداد ما يتطلبه الجسم الناشىء فى رحم الشاة.

وهذا كله لم يكن شىء منه لدى الشاة. ولكن يد رسول الله الطاهرة، ورغبته الكامنة فى قلبه، جعلت اللبن يقبل إلى الضرع بعد أن مرّ بمراحل عديدة، افتقرت إلى ماء الفحل وإلى الطعام الوفير.

وكأن يد رسول الله ﷺ ورغبته الكامنة فى صدره نفخة عيسى عليه السلام فى هيئة الطير.